المحاضرة الخامسة

قصص الحيوان: فلسفة الظاهر و الباطن

" فأمر الملك عند ذلك بفتح أبواب خزائنه، و أن يحكم فيها الفيلسوف فيأخذ ما احتكم من الأموال و من صنوف الدر والجوهر و الذهب و الفضة و ألا يمنع شيئا من ذلك و أقطعه إقطاعا كثيرا ورفع درجته و مرتبته إلى الغاية التي لا يسمو إليها أحد من نظراءه" (كليلة و دمنة)

تمهيد:

يقوم السرد على لسان الحيوان بعرض و تمثيل الأوضاع المتردية سياسيا و اجتماعيا وإدارتها في شكل سردي رمزي عندما يجعل الرموز الحيوانية تطرح التساؤلات وتتفق و تختلف، تناقش و تعرض المزايا و العيوب ليتأثر بها المتلقي و يقارن فعل بفعلها عن طريق التعايش مع السرد بخياله، فتحصل له المتعة، و بالتفكير في كلام العجماوات بعقله يتوصل للمنفعة.

و يكتشف المتلقي بعد فترة أن المرسل يستدرجه كي يكشف له مساوئ السلطة، فتختلط بذلك المتعة الخيالية بالحقيقة الواقعية.

التعريف بقصص الحيوان:

هي قصص تعتمد على الرمز بوصفه وسيلة فنية تهذيبية يتمكن الكاتب عن طريقها من توجيه رسائل إلى المتلقي بطريقة غير مباشرة هي السرد على لسان الحيوان.

و هو:" عبارة عن قصص رزية يحرك كاتبها حيواناته كما يشاء و ينطقها بما يريد، و هدفه من وراء ذلك قول ما لا يستطيع قوله على لسانه أو لسان إنسان آخر لظروف منعته من التصريح"[1]

نشأة قصص الحيوان:(من كليلة و دمنة حتى فاكهة الخلفاء)

[1]- محمد التنوجي" المعجم المفصل في الادب" ص:٤٥

قديمة جدا، بدأت شعبية أو أسطورية ثم أخذت في الارتقاء كجنس أدبي له مكانته.

دخلت الثقافة العربية بعدما ترجم ابن المقفع كليلة و دمنة (ق٨ م) و كانت سببا في خلق هذا الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم، ثم توالت المؤلفات التي حاكته نظما و نثرا، يقول الكتور غنيمي هلال:" كانت ترجمة عبد الله المقفع سببا في خلق هذا الجنس الجديد في الأدب العربي القديم، ذلك أن حكايات الحيوان في الادب العربي القديم قبل " كليلة ودمنة" كانت إما شعبية فطرية تشرح ما سار بين العامة من أمثال و إما مقتبسة من كتب العهد القديم؛ أي ذات طابع ديني يتصل بالعقائد، و ما عدا هذين فمتأخر عن كليلة و دمنة و متأثر به" [١]

ولعل الحالة السياسية في زمن المنصور الطاغية الذي يشبه من حيث طغيانه دبشليم كانت من الدوافع الأساسية التي حدت بابن المقفع لترجمة الكتاب، فشغف الكتاب و الشعراء به فنسجوا على منواله و منهم من عارضه و منهم من حذا حذوه فألف على لسان الحيوان، ففي العصر العباسيي الاول ترجم الكتاب ثانية و لكن لم يصلنا شيئ من هذه الترجمة، ثم نظمها إبان اللاحقي شعرا في١٤٠٠ بيت لم يبق منها سوى٧٦ بيتا .وألف الشريف بن الهبارية " نتائج الفطنة في نظم كليلة و دمنة" .

و لم يقتصر كتاب كليلة و دمنة على الشعر ، بل تعداه إلى النثر حتى وصل إلى الكتابات الفكرية و الفلسفية مع إخوان الصفاء (ق٤ه) الذين وظفوا الحيوانات و أجروا على لسانها آراءهم الفلسفية، فجاءت مبادئهم الفكرية في قوالب قصصية مبنية على الحوار و المناظرة لعالم الحيوان و الجن و الإنسان، ففي رسالتهم " تداعي الحيوان على الإنسان" تقرأ في نهايتها تصريح بغرضهم: " و نحن قد بينا في هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب على لسان الحيوان فلا تظننّ بنا ظن السوء و لا تعدْ مقالتنا ملعبة الصبيان و مخرفة الإخوان لأن عادتنا جارية على أفانين الحقائق بألفاظ و عبارات على وجه الإشارات و تشبيهات على لسان الحيوانات و مع هذا لا نخرج عما نحن فيه عسى أن يتأمل المتأمل في هذه الرسالة و ينتبه من نوم الغفلة و يتعظ من مواعظ الحيوانات و خطبهم و يتأمل كلامهم و إشاراتهم لعله يفوز بالموعظة الحسنة" [٢]

و ألف سهل بن هارون " ثعلة و عفراء" و " النمر و الثعلب". و ألف محمد بن أبي

---

[١]- غنيمي هلال " الأدب المقارن" ص:١٥١

[٢]- رسائل إخوان الصفاء ج٢ ص:٣٧٧

القاسم بن علي القرشي " سلوان المطاع في عدوان الأتباع"

و من اللافت ان النص الألفليلي حظي بنصيب وافر من قصص الحيوان حيث أفردت الليالي صدرها لمجموعة كبرى من هذه القصص فجاءت متفرقة متناثرة في سائر قصص الليالي كحكايات تفريعية ترويها شهرزاد تأكيدا لمبدأ أو تذليلا لقضية أو تفسيرا لسلوك أو شرحا لبعض الطباع الإنسانية أو حسما لموقف أو برهانا لفكرة.

و توالت الأعمال السردية على لسان الحيوان إلى أن ألف ابن عرب شاه كتاب " فاكهة الخلفاء" كآخر حلقة قبل العصر الحديث (العصر المملوكي)

فلسفة الشخصة الرمزية بين الوجه و القناع(أنسنة الحيوان)

أسس عبد الله بن المقفع (ت١٤٢ ه) بلاغة جديدة قائمة على علاقة القص بالتمثيلات الرمزية وفقا لسياسة البلاغة القائمة على التحول، و هو تحول يجعل للإنسان المتلقي حرية الاختيار في الأعمال و الأفعال[١] يقول بن المقفع على لسان دمنة: " إن المنازل متنازعة مشتركة على قدر المروءة، فالمرء ترفعه مرروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة، و من لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة، و إن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد و الانحطاط منها هيّن كالحجر الثقيل رفعه من الأرض إلى العاتق عسر و وضعه إلى الأرض هين، فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل أو نلتمس

بذلك بمروءتنا ثم كيف نقنع بمنزلتنا و نحن نستطيع التحول عنها" [٢]

و تقتضي سياسة البلاغة ثنائية الظاهر و الباطن و هي ثنائية اقتضتها بلاغة المقموعين التي توسلت بها ثي سبيل الإبانة؛ فإذا الظاهر مستغنيا بظهوره يمنح ذاته لكل من يقاربه في ذاته فهو لا يعطي سوى القشور التي تلهي و أما الباطن فمستور متأبٍ يحتاج تعرفه إلى استدلال و مقايسة و تفسير و تأويل[٣]

يعكس كتاب كليلة و دمنة بحكاياته الرمزية(الأليجورية) على لسان الحيوان قصة الصراع بين السلطة و الثقافة و لأن هذا الكتاب ينطوي على غايات سياسية تحريضة فقد ادعى ابن المقفع أنه نقل هذا الكتاب عن الهندية عبر الفهلوية أو النص الفارسي

---

[١]- ينظر ضياء الكعبي " تحولات السرد العربي القديم" كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ٢٠٠٤ص:١٤٢

[٢]- ابن المقفع " كليلة و دمنة" ص:١٢٢

[٣]- ينظر جابر عصفور: " بلاغة المقموعين" الدار البيضاء ١٩٩٣ص:٣٤

المعروف باسم " البانج تترا أو أسفار الحكمة الخمسة" و لكن المقاربات النصية الحديثة لبين كليلة و دمنة (الأصل الهندي) بعد العثور عليه أثبتت أن ابن المقفع أعاد إنتاج هذا الأصل بروح عربية إسلامية و بإضافات تزيد عن نصف الكتاب([1])نقرأ في كليلة و دمنة: " ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه بل يشرف على ما يتضمنه من الأمثال حتى يأتي عليه آخره و يقف عند كل مثل و كلمة و يعمل فيها رويته... و يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر من غير ضجر و يلتمس جواهر معانيه و لا يظن نتيجته إنما هي الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور فينصرف بذلك عن الغرض المقصود" [٢]

و تأتي الشخصية الرمزية في قصص الحيوان أمزجة شتى؛ حيث تقدم شخصيات فنتازية ترمز إلى المنظومة السياسية و من هنا جاءت الرمزية كثورة روحية على قصور الكلمة في نقل الأفكار؛ فهي ثورة على اللغة الإنشائية الخطابية يبتعد فيها المؤلف عن الوعظية و المباشرة فلا ينسج على منوال مألوف بل يتطلع إلى سرد غريب و بعيد لينقل إلى صاحب السلطة ما أراده على لسان العجماوات فاستطاع بذلك أن يبني مفارقة بين الظاهر و الباطن لأن الحكمة و الموعظة على لسان الحيوان أدعى للقبول و الإقناع منها على لسان الإنسان الذي تنطوي حكمته الإرشادية على نوع من الاستعلاء الضمني و هذا أمر مرفوض من المتلقي لا شعوريا(بعد دهائي)

حكاية الحيوان إذن منظومة رمزية و ما حكاية الحيوان إلا قناع شفاف و ما الحيوان إلا تمويه؛ فثمة شخوص حيوانية ظاهرة في مقابل شخوص إنسانية باطنة قد تكون في ظاهرها بسيطة و ربما سخيفة تنتمي لعالم الأطفال و العامة أما على المستوى الباطني فإنها حبلى بالإيحاءات.

---

[1]- ينظر محمد رجب النجار: " التراث القصصي" ص:١١١

[٢]- ابن المقفع: " كليلة و دمنة" ص:٨٣

§§